5

محمود شرف

مسئول المظالم في مكتب عبد الناصر :

❖ جمال عرض على لطفي السيد رئاسة الجمهورية في بداية الثورة.

❖ مواطنة مصرية تقول لعبد الناصر : أنقذني من زوجي و إلا سأنتحر

❖ سلبيات عبد الناصر كلها .. خرجت من مكتب المشير

obeikan.com

obeikan.com

كيف كان عبد الناصر يتصل بالمواطنين ؟ وكيف كان المواطنون يتصلون برئيسهم جمال عبد الناصر ؟

كيف كان جمال عبد الناصر يعرف مجريات الأمور في مصر ؛ ومن الذي كان مكلفا بنقلها إليه ، وماذا كان موقفه منها ؟

من أين جاءت السلبيات في رحلة حكم عبد الناصر ومن الذي كان يقف وراءها وكيف كان تصرف الرئيس حيالها ؟

أسئلة كثيرة وجهتها إلى الرجل المسئول عن « إدارة الشكاوى » بمكتب رئيس الجمهورية .. الأستاذ محمود شرف . الذي لم يكن مجرد موظف في مكتب الرئيس بل كان صديقا وزميلا لعبد الناصر منذ أن كان طالبا في المدارس الثانوية بمدينة القاهرة.

وقد اختاره عبد الناصر لينشئ « إدارة الشكاوى » ويتلقى مظالم الناس ويضع يده على نبضهم ويكون همزة الوصل بينه وبينهم ثقة منه في الرجل الذي أخبره منذ أن كان صبيا لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره وفي حواري معه يضع محمود شرف نقاطا كانت ضائعة على حروف مشتتة ، فاكتملت كثير من الجمل المفيدة في كتاب تاريخنا العربي المعاصر .

متى تعرفت على جمال عبد الناصر: وما هي الظروف التي جمعتكما لأول مرة؟

– كنت طالبا في مدرسة الخديوية الثانوية ، حينما سمعت عن جمال عبد الناصر الطالب بمدرسة النهضة الثانوية لأول مرة ، فقد كانت شهرته على مستوى طلبة المدارس الثانوية – قد اتسعت ، لأنه في ذلك الوقت كان زعيما طلابيا مرموقا .. رغم أنه لم يكن قد مضى على التحاقه بمدرسة النهضة سوى عام واحد فقط ، وكان قبله طالبا في مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية .وقد ترأس جمال اللجنة

الطلابية بمدرسة النهضة وكنت أنا رئيسا للجنة الطلابية بمدرسة الخديوية وكانت اللجان الطلابية في ذلك الوقت، هي قيادة العمل السياسي بالمدارس الثانوية ، كذلك فقد كانت هناك اللجان الطلابية بالجامعات. وقد تولى جمال عبد الناصر القيادة باللجنة التنفيذية لطلاب المدارس الثانوية على مستوى القاهرة كلها ، ومن ثم كان يجرى الاتصالات باللجان الطلابية بالمدارس لتنسيق العمل وأعطاه التوجيهات الخاصة بالحركة الطلابية في ذلك الوقت ، ومن هنا تم التعرف على جمال عبد الناصر شخصيا ، وقد رافقته في جميع المظاهرات والتي خاضها الطلاب ضد الإنجليز أو القصر أو رجال السياسة الموالين لأحدهم أو لهما معا .

وبعد أن انتهينا من الدراسة الثانوية التحق جمال بكلية الحقوق ثم تركها ليلتحق بالكلية الحربية وبعد تخرجه ذهب إلى السودان ، ليخدم ضمن القوات المصرية العاملة هناك ، وكان مقره بجبل الأولياء .. ومن هناك أرسل خطابا إلى صديقه عبد الرءوف جبريل وكان صديقي أنا أيضا .. وقد أطلعني عبد الرءوف على الخطاب مستغربا من صديقه جمال كيف يتحدث عن مصر وأحواله السياسية وهو على بعد آلاف الكيلو مترات منها .. ولم يسأل جمال في رسالته عن أحد من أصدقاءه أو معارفه ، ولكنه فقط كان يسأل عن مصر و أحوالها .. وهذا ما جعل عبد الرءوف يطلعني على الخطاب مستغربا . وهو لا يعرف بأن جمال عبد الناصر صديقي أنا أيضا ، وأنني زاملته أيام كنا طلابًا بالثانوية .. وقلت لصديقي عبد الرءوف أن جمال كان هكذا دائما وأنه لا يهتم بشيء قدر اهتمامه بمصر وأحوالها..

وحينما عاد جمال من السودان اجتمع شملنا مرة أخرى ، ولم نفترق حتى مات .. رحمه الله .

***

شكوى الناس

كيف سمعت بالثورة وهل شاركت جمال عبد الناصر – قائد الثورة – مسئولياته الكثيرة ؟

– قامت الثورة فجر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ – وبعد أن استقرت لها الأمور نسبيا – أي بعد أسبوعين تقريبا من إعلانها – توجهت و معي عبد الرءوف جبريل إلى جمال عبد الناصر بمجلس قيادة الثورة، وهناك التقينا به وطلب منا أن نبقى إلى جواره لإدارة بعض المسائل الهامة .. لم نكن نعرف ماذا يقصد بالضبط .. وفي يوم من الأيام استدعاني ومعي عبد الرءوف جبريل وفاتحنا في مسألة إنشاء إدارة جديدة اسمها« إدارة الشكاوى» بمكتب رئيس الجمهورية .. تكون مهمتها تلقي الشكاوى والاقتراحات التي يبعث بها المواطنون إلى رئيس الجمهورية والرد عليها ومتابعتها وهي إدارة جديدة لم تعرفها الحكومات المصرية من قبل وعلى الفور بدأنا في الإعداد لتشكيل الإدارة الجديدة .. وانتهينا من ذلك وبدأنا العمل فعلا.

ما هي الموضوعات التي كانت تضمنها شكاوى الناس في ذلك الوقت ؟

– كانت موضوعات خاصة وأخرى عامة .. مثل الحاجة إلى مياه الشرب النقية في إحدى القرى أو رصف طريق أو إدخال الكهرباء .. أو انقطاع المياه أو الشكوى من ممارسات بعض رجال الإقطاع السابقين أو بعض المسئولين الحاليين .. وكنا نكتب تقريرا يوميا إلى الرئيس يتضمن ملخصا لأهم الشكاوى ونتلقى تعليمات مكتوبة منه بشأنها ونقوم بتوجيهها إلى الوزراء المختصين كل حسب اختصاصه .. هكذا .

مواقف إنسانية

قلت أن هناك بعض الشكاوى الخاصة التي يرسلها المواطنون إلى الرئيس .. فهل تعطينا بعض النماذج لها وكيف كان رد الرئيس عليه ؟

- كانت المشاكل الخاصة كثيرة ومتنوعة .. على سبيل المثال أرسل أحد أبناء المرحوم عبد القادر عودة .. وهو من قيادات الإخوان الذين أعدمتهم الثورة بعد حادث الاعتداء الشهير الذي قام به الإخوان في ميدان المنشية بالإسكندرية ، إرسال هذا الابن رسالة خاصة إلى جمال عبد الناصر يشكو فيها بسبب عدم قبوله بكلية الشرطة رغم استيفائه لكل الشروط المطلوبة ، وقد أشر الرئيس على الرسالة بضرورة قبوله بكلية الشرطة إذا كان حقيقي مستوفيا الشروط .. وبالفعل تم قبول ابن عبد القادر عوده الذي كان أحد المتهمين بتدبير حادث اغتيال جمال عبد الناصر بالمنشية.

وفي رسالة أخري بعثت زوجة مرتضى المراغى وزير الداخلية في عهد الملك تطلب السماح لها بالسفر إلى الخارج للحاق بزوجها الذي خرج مع الملك فاروق عقب الثورة وقد رفض المسئولون السماح لها بالسفر وقد أشر الرئيس على تلك الرسالة بضرورة السماح لها بالسفر .

وكذلك كان موقف الرئيس مع زوجة الصحفي أحمد أبو الفتوح الذي كان يرأس تحرير جريدة المصري .. وهرب إلى أوروبا بعد تأميمها وهناك أسس إذاعة تحرض الناس في مصر على الثورة ضد جمال عبد الناصر الذي لم يكن لتلك الإذاعة هم إلا مهاجمته وسبه ليلًا ونهارًا لقد كان جمال عبد الناصر إنسانا إلى أقصى درجة ، ولم يسمح لنفسه في يوم من الأيام بأخذ أحد بجريرة أحد ، وكان متسامحا إلى حد كبير مع خصومه والذين يكيدون له وسأذكر لك مثلا واحدًا يظهر لك مدى إنسانية جمال عبد الناصر وعطفه على الناس .. ذات يوم وصلتنا رسالة من امرأة تشكو فيها من معاملة زوجها لها وتهدد السيدة في رسالتها بالانتحار .. وقد أرسلت مبلغ ستين جنيها لجمال عبد الناصر لينفق منها على إجراءات دفنها بعد الانتحار

بسبب زوجها .. وقد أرسلت موظفا من إدارة الشكاوى على عنوان تلك السيدة ليستطلع أمرها وحينما وصل وجد البوليس والنيابة ورجال الإطفاء في شقتها، فقد انتحرت السيدة فعلا فقمنا بتسليم مبلغ الستين جنيها الذي كانت قد أرسلته إلينا إلى النيابة وقمنا بالإنفاق على إجراءات دفنها من مخصصات الرئاسة حسب تعليمات عبد الناصر شخصيا حين أطلعناه على الأمر .

وإذا سألت لماذا أرسلت هذه السيدة إلى جمال عبد الناصر شكواها الشخصية فلن تجد إجابة غير « الإنسانية » فقد كان الأب والأخ ، والعائل لكل المواطنين ، وقد حمله الناس المسؤولية .. حتى مسؤولية مشكلاتهم الشخصية.

رسالة من شاب «ضائع»

في حادث آخر .. تلقينا رسالة من شاب بإحدى قرى محافظة الشرقية يقول فيها أنه ضائع بسبب الخلاف الدائم بين أبيه و أمه و أنه يخشى أن يفشل في دراسته بسبب الفقر وضيق الحال ، فأرسلت إلى مأمور المركز التابع له هذا الشاب ، و أوصيته – باسم مكتب رئيس الجمهورية – أن يصطحب شيخ المسجد بالقرية أو أحد الكبار فيها ليقوم بإصلاح ذات البين في أسرة الشاب .. وبعد فترة وصلتنا رسالة من مأمور المركز يقول فيها أنه تم اتخاذ اللازم وعادت المياه إلى مجاريها في الأسرة المذكورة .. ذات اللحظة حضر إلى مكتبنا الصحفي إسماعيل عبد التواب من جريدة الشعب التي يرأس تحريرها في ذلك الوقت صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة . وقد سألني الصحفي عبد التواب عن أخبار شكاوى المواطنين بالإدارة فقدمت له رسالة الشاب ورد المأمور عليها فاقترح الأستاذ إسماعيل عبد التواب أن يذهب إلى قرية الشاب بنفسه لعمل تحقيق صحفي عن الموضوع . ورأيت أن أذهب معه لمتابعة الموضوع بنفسي .. وهناك فوجئت بأن مأمور المركز غير ملم بالموضوع ، وأنه كان

غائبا ، و أن الذي أرسل الرد على إدارة الشكاوى هو نائبه ، وقد أرسله – تسديد خانة – دون أن يتخذ اللازم فعلا.

ذهبنا إلى القرية وقابلنا الشاب و اطلعنا على أحواله وبعد العودة إلى القاهرة قابلت الرئيس مقدما له تقريرا عن الموضوع فأمر بعقاب مأمور المركز لإهماله .. وتخصيص إعانة شهرية لأسرة الشاب الفقير وصرف مكافأة للصحفي إسماعيل عبد التواب الذي أصر على متابعة الحالة .

وهكذا كان جمال عبد الناصر .. أبا كبيرا وإنسانا بدون نظير.

أتحدى المشككين

ولكن البعض يحاول تصوير جمال عبد الناصر بصورة مغايرة قائلين بأنه كان ديكتاتورا وطاغية ومتعطشا فما ردك على هؤلاء؟

– لم يكن لجمال عبد الناصر غير الصورة الإنسانية التي تحدثت عنها .. ومن يقل غير ذلك فهو مخطئ أثيم .. وأتحدى أن يثبت عكس ما أقول . خاصة الإخوان المسلمين ، فهو لم يكن إنسانا كما كان معهم بالذات ، لقد استمر صرف مرتبات الإخوان المعتقلين بلا ذنب لأبنائهم أو عيالهم .. ومن لم يكن له راتب من الحكومة كان يأمر بصرف راتب له من وزارة الأوقاف وعلى سبيل المثال حين سمع عبد الناصر أن محمود عبد اللطيف الذي حاول اغتياله بإطلاق الرصاص عليه ليس موظفا ويعول والديه أمر بتخصيص راتب شهري لأسرته من وزارة الأوقاف.

وأتحدى أي صحفي أو كاتب ادعي أن جمال عبد الناصر فصله من عمله أو أوقفه عن الكتابة وأوقف صرف راتبه لم يفعلها جمال عبد الناصر مع أحد من الصحفيين أو الكتاب أو الموظفين الذين سجنوا في عهده أو أوقفوا عن الكتابة . خاصة أنيس منصور أو غيره . وحين كانت تصل إلينا شكاوى عن بعض

التجاوزات في تنفيذ القانون من رجال الشرطة كأن يأمر بالتحقيق فورا لمعاقبة المسيئين.

وأمر باعتقال عمه خليل ، ولم يقبل شفاعة والده ، حين توسط للإفراج عن شقيقه ، وكان يصرف أيضا على أسرته من راتبه الخاص.

وأمر باعتقال عمه سلطان بسبب إشاعات – مجرد إشاعات – عن استغلاله لنفوذه .. وحينما توسط صديق عمره حسن النشار لتعيين عمه سلطان في شركة المعادي للمقاولات براتب ثلاثين جنيها غضب من حسن النشار وأمره بإحضار ملف عمه من الشركة وقام بتمزيقه بنفسه ثم صرف له مبلغا من المال كمساعدة من جيبه الخاص.

نعم لقد اعتقل جمال عبد الناصر بعض الناس .. ولكن بالحق والعدل ولم يستثني أحدًا في ذلك حتى أقرب الناس إليه .

وأذكر أنه في بداية الثورة .. كان شقيقه عز العرب يعمل في شركة الغزل بكفر الدوار وقد قرر رئيس الشركة تعيين عز العرب عضوا بمجلس الإدارة رغم أن خبرته لا تسمح بذلك فغضب جمال عبد الناصر و أصدر أمرا بنقل شقيقه من الشركة وتعيينه بمكتب جريدة الجمهورية بالإسكندرية.

تأميم قناة السويس

كان جمال عادلا ولم يكن ديكتاتورا كما قيل ، و على سبيل المثال استدعي عبد الناصر الدكتور الحفناوي في عام ١٩٥٤ وطلب منه دراسة عن أثار تأميم قناة السويس من ناحية القانون الدولي . وقد ظل الدكتور الحفناوي وكنت أنا معه في عمل هذه الدراسة وقدمناها إلى جمال عبد الناصر . قبل تأميم القناة .. إذن لم يكن تأميم القناة قرارا وليد اللحظة أو رد فعل لقرار البنك الدولي بسحب الموافقة على

تمويل السد العالي . كما أنه لم يكن قرارا فرديا اتخذه عبد الناصر في ثورة غضب كما قيل . لقد أعد للأمر عدته وفي سرية تامة ضمانا للنجاح وقد غضب أنور السادات وعبد الحكيم عامر لأنه لم يستشيراهما في قرار التأميم .. وقد فوجئنا ولكنا لم نفاجأ فقد كنا نعرف قبل ذلك بعامين ، وقد استشار أساتذة القانون الدولي في سرية تامة.

لم يكن عبد الناصر ديكتاتورا وأرجو أن تعود إلى مضابط اجتماعات مجلس الوزراء أو التنظيم الطليعي التي كان يحضرها جمال عبد الناصر لتعرف أنه كان – ودائما – آخر المتحدثين وسوف تتأكد من وجود ديمقراطية لم توجد في مصر في أي وقت من الأوقات ، ولم يكن جمال مستأثرا بالرأي أو متمسكا به ، وكان يترك النقاش يجرى في جو من الحرية دون تدخل حتى في لحظات التشنج وانفلات الأعصاب وفي نهاية الاجتماع كان يقول رأيه بصراحة فإذا به الرأي الأصوب والأقرب إلى الحق . ولهذا كان يحصل على موافقة أغلبية الحاضرين

رجال حول المشير

يحاول البعض أن يبرئ جمال عبد الناصر من السلبيات التي كانت تجري في الواقع فيقول بأنه لم يكن يعلم عنها ، فهل كنتم – حقيقة تحجبون بعض الحقائق – عنه إشفاقا عليه أو خوفا منه ؟

– كان جمال عبد الناصر يعرف كل صغيرة وكبيرة تجرى على أرض الواقع وكان له مصدران للمعرفة ، إدارة الشكاوى وتقارير التنظيم لم يكن أحد يجرؤ على إخفاء حقيقة عن الرئيس لأنه متأكد أن الرئيس سوف يعرفها من مصادر أخرى فيخاف من الكتمان . وحينما كان الرئيس يعرف سلبية من السلبيات كان يواجهها بشجاعة والسلبية الوحيدة التي وقف الرئيس عاجزًا أمامها . وترك أمر مواجهتها إلى حين هي سلبيات المشير عبد الحكيم عامر ، وكان المشير قد أصبح بالفعل قويًا مستعينا

بالجيش وكبار قادته بعد أن وضعهم في جيبه بما كان يمنحهم من امتيازات ومخصصات .. وقد شهدت إحدى الوقائع بنفسي حينما رأيت مدير مكتب المشير على شفيق يمنح أحد كبار الضباط مبلغ أربعة آلاف دولار كمساعدة من المشير ليعينه بها على تجهيز إحدى بناته للزواج .. وقد حاول الرئيس أكثر من مرة أن يعيد المشير إلى صوابه ، ولكنه فشل في ذلك بسبب الرجال المحيطين به أمثال صلاح نصر وعلي شفيق وشمس بدران وعباس رضوان .. وغيرهم ومعظم السلبيات التي قيلت عن فترة حكم جمال عبد الناصر خرجت من مكتب المشير ورجاله.

عرض الرئاسة على لطفي السيد

هل كان عبد الناصر كما قال البعض عنه – يسعى إلى الزعامة الشخصية ويبذل من أجلها الكثير حتى لو كان من نتيجة ذلك الخسائر الفادحة؟

– هذه تخرصات وأكاذيب ملفقة والدليل على ذلك أنه في بداية الثورة ورغم أنه – كما هو معروف – العقل المدبر ، والقائد الحقيقي لها إلا أنه رفض أن يتولى السلطة كرئيس للجمهورية . وجاء باللواء محمد نجيب ليكون أول رئيس لجمهورية مصر بدلا منه وقد فكر جمال في تقليد الأستاذ لطفي السيد منصب الرئيس ، ولكن الرجل أبى ذلك وقال لجمال عبد الناصر حين فاتحه في الأمر أنتم الشباب أولى من أي أحد . ومصر في حاجة لجهود الشباب أكثر من الشيوخ أمثالنا ، لقد أدينا رسالتنا وعليكم تكملة المشوار .. وأمام إصرار لطفي السيد على الرفض لم يجد جمال عبد الناصر مفرا من إسناد المهمة لمحمد نجيب ، ولم يكن جمال عبد الناصر يهرب من المسؤولية – كما توهم البعض فقد نجحت الثورة منذ أول يوم وزال الخطر عنها بعد رحيل الملك ، كما أن جمال لم يكن يرى المنصب اكبر منه ، و أراد أن يسنده إلى من هو أكبر منه ، كما يتوهم البعض أيضا – فقد كان شديد الثقة في نفسه .. لدرجة

أنه كان يذهب إلى زعماء الأحزاب السياسية قبل الثورة وهو لم يتجاوز الثانية عشر بعد .. ويناقشهم في أدق القضايا السياسية ويعلن أمامهم رأيه بصراحة وشجاعة تامة.

أريد أن أقول أن جمال فعل ذلك لأنه كان يريد أن يتوارى في الظل ، إنكارًا للذات ، في الوقت الذي يتحمل فيه المسؤولية فعلا ، كان جمال يتحلى بالتواضع الشديد وإنكار الذات والشجاعة والثقة في النفس والاعتداد بها غير أن الزعامة هي التي كانت تسعى إليه بحكم تكوينه الشخصي ، كانت زعامة جمال زعامة طبيعية وغير مصطنعة ، كان يتمتع بحضور غير عادي ونظرات ثاقبة وعميقة ، وهذه الصفات الشخصية رشحته زعيما في كل مراحل حياته منذ أن كان طالبا وحتى خرج إلى الحياة العامة . لم يكن هناك من يجاريه أو ينازعه الزعامة التي وجد نفسه بها ومجبولا عليها.